Generated by Unregistered Batch DOC TO PDF Converter 2012.4.309.1596, please register!

يومٌ متميّزٌ في حياتي ..

جلال خشيب : 23 ديسمبر 2011 .

استيقظت البارحة مبكرا على غير عادتي إذ تعودت النوم إلى وقت متأخر من النهار وكأنّي صاحب شركات كبرى لا يخشى الفاقة أبدا ، لم أكن حينها أدرك أنّ يومي هذا سيكون متميزا ، ما جعلني أترك وسادتي الدافئة في ذلك اليوم البارد الدّي تعرفه مدينتنا هذه الأيام هو رغبة أختي في أن يُرافقها أخوها الأكبر إلى البلدية التّي يقطن فيها زوجها المستقبلي لعقد قرانها المدني رفقة الأهل ، فبالرغم كرهي الشديد لهذه المناسبات و هذا النوع من الرسميات بما فيه زيارة أهل الزوج الدّين سيعدون الولائم إكراما لهذا اليوم و أهله إلاّ أنّي وجدت نفسي مرغما على الذهاب تحقيقا لرغبة أختي الغالية فذلك سيجعلها أكثر سعادة رغم أنّ في الأمر تعاسة لي للسبب الذي ذكرت ، على كلّ حال تذكرت قول شاعرهم يوم قال : بديع لو كان حبّك صادقا لأتّبعته .. إنّ المحب لمن أحب مطيع ... نهضت على مضض أخذت الإجراءات اللازمة من " جال و حلاقة و عطر " أنتم تعرفون لا يدري الواحد أين سيجد حظّه لذا عليه بأن يكون مستعدا في كلّ حين .. و بينما أنا كذلك إذ أخبروني أنّ هناك مفاجئة سارّة ، فللزوج صديق سيكون شاهدا على زواجه و أنّه لا يقوم بذلك إلاّ للقلائل من الناس ، كان صديقه هذا أحد العلماء الكبار في بلادنا و إن لم أكن أبالغ قليلا كان حجمه يُقاس على مستوى عالمنا العربي و الإسلامي عموما حسب ما أخبروني به فيما بعد ، مع ذلك لم أشعر لحظتها بحماسة كبيرة لملاقاة الرجل ، فقط لكوني لم أسمع به من قبل ... استأجرنا سيارة و مضينا نسلك دربنا متأملين جمال الطبيعة في جوها البارد و الذي تصحبه زخّات قليلة من مطر الشتاء ، لذا لم أشعر ببعد المسافة قليلا ، فرغبتي الجامحة في مواصلة النوم و حبّي لتأمل جنبات الطريق حين السفر خلق التناقض في نفسي فلم يكن منّي إلاّ أن رضخت لحبي الثاني مُطرقا في نفس الوقت سمعي إلى ما يبثه مذياع السيّارة الذي كان مضبوطا على إذاعة سيرتا ، بين نكت و غناء و مداخلات المستمعين عبر الإذاعة من جهة و بين جمال الطبيعة و سخريتي من أختي تارة و أمي تارة أخرى طول الطريق من جهة أخرى مرّت الطريق كلمح البصر ، بالطبع لم أكن لأصل معهم لو وجهت لساني السليط قبلة أبي ، لذا تجنبت ذلك مخافة أن أرجع إلى البيت مشيا على الأقدام مع طول المسافة و برد المسير...

وصلنا أخيرا إلى بلدية عين المكان ، عذرا أصدقائي فلنسميها أيّ شيء إلاّ بلدية ،" بيت صغير" و وحل كثيف في محيطها القريب و على عتباتها ، مياه أمطار داخل مكتبها و الأكثر من ذلك موظف متواضع و مهذب حسن السلوك أُحضر إلى مكتبه بشقّ الأنفس ليقوم بعمله و ليقول لهم بلسان رطب و لطيف " و الله عيب كان عليكم إخبارنا من قبل أنّ الناس قدموا من قسنطينة ، على الأقل كنّا سننظف المكان و نمسح هذه المياه داخل المكتب " ، كان الرجل يشعر بثقل المسؤولية بالفعل و كان ذلك يشعرنا بالخزي ، تبّا لنا لماذا لم نخبر الرجل من قبل ، كنّا سنحظى حينها باستقبال أفضل ، كان سيفرش لنا الورود ، كان موظفا

Generated by Unregistered Batch DOC TO PDF Converter 2012.4.309.1596, please register!

مثاليا و عبرة يُقتدى بها لكلّ موظفي بلدياتنا في جمهوريتنا العظيمة ... دخلنا المكتب و أخذ الحاضرون أماكنهم أخذت مجلسي المفضل على حافة الأريكة لأتمكن من وضع مرفقي الأيمن على حافة الأريكة و بشكل جيد ، مرجعا جسدي إلى الخلف بينما تُلامس أصابع يدي اليمنى ذقني كالعادة ، رافعا قدمي اليُسرى على اليُمنى ، تلك هي الجلسة التّي أتخذها لحظة الاستمتاع بملاحظة ما يدور حولي .. جلس المعنيّان قريبا من المكتب و جلس شيخنا الجليل رفقة البقية قريبا بمحاذاتهما ، كان المكتب عبارة عن غرفة صغيرة مبعثرة بها أريكتين مخصصتين للزوار كرسيين قريبين من مكتب الموظف و الذّي يعلوه صورة لرئيسنا المبّجل رحمه الله ، لا أقصد رئيسنا الحالي فلا تظنوا أنّي أستعجل رحيله فالرجل لم يتسبب لي في شيء و عازم إن شاء الله على أن أدعو له بالخير يوم رحيله بعد أن أنال في عهدته" الفيزة " بالطبع ، لقد كانت الصورة للرئيس بومدين رحمه الله ما أثار في نفسي تساؤلات عدّة ، ألم يتغيّر شيء في هذه البلدية اللعينة منذ عهد رئيسنا الراحل ؟ بالإضافة إلى أسئلة أخرى لا أريد طرحها الآن مخافة أن أكمل بقية حياتي " الجميلة " بين أربعة جدران .. هذا بالإضافة إلى حزمة أوراق و دفاتر عائلية مبعثرة على الجانب الأيمن لأريكتي ، بالإضافة إلى باب يؤدي إلى مكتب مجاور يُغلق على الطريقة الجزائرية يتعامل معه الرجال دون النساء لأنّه يستلزم عضلات ليفهم منك ما ترده بالضبط .. على كلّ حال فلنرجع إلى موظفنا اللطيف ، كان من شدّه لطفه أو حيائه- لم أفهم بعد – يتجنب النظر إلينا ، ظننت في البداية أنّ الرجل يغُضُ بصره عن الحُرمة لكنّه تبيّن لي أنّه يغّض بصره عن الجميع بما فيهم شيخنا الأسمر الجليل بلحيته البيضاء الوقورة ، حينها تأكدت يقينا أنّ الرجل يفعل ذلك من شدّة تواضعه الجميل ، يمضغ العلكة و يتكلم بلغة الآمر مستعملا في ذلك كفّه ، دون أن تحظى على الأقل بفرصة مواتية لرؤية عينيه الجميلتين ، همست حينها للوالد لافتا انتباهه لتواضع موظفنا الجليل مقارنة بتكبر شيخنا المتعالي فهمس في أذني اليسرى قائلا من " المؤكد أنّ شيخنا هذا لا يحمل شهادة تعليمية إلاّ شهادة ميلاده " ، لذا أردت أن أذكّر حينها شيخنا المتكبر ببيت من الشعر علّه يتواضع قليلا في حضرة موظفنا العظيم .. ملئ السنابل ينحنين تواضعا ... و الفارغات رؤوسهن شامخات .. فالتتعظ يا شيـــــــــخ..

انتهت مراسيم التسجيل المدني و وقفت أبارك للزوجين و ألتمس الدعاء من الشيخ كما لم أفوّت تلك اللحظة العظيمة في تقبيل رأس شيخنا المتكبر و أخذ صور تذكارية معه ، وتلهف الجميع لذلك أيضا وسط حيرة موظفنا اللطيف الذّي أدرك حينها أنّ للشيخ المسنّ قيمة معيّنة فقام فورا إلى تقبيله و بذلك حظيَ أحدنا على الأقل بشرف النظر إلى عيني موظف البلدية بل و بتقبيله أيضا ..ماذا تبقى إذن ؟ ... إنّها الوليمة...

في طريقنا إلى هناك أردت أن أعرف المزيد عن شيخنا هذا ، لذا فقد أطرقت سمعي للزوجين الجديدين و هما يُقصان عليّ شيئا عن حياة شيخنا الجليل ، إنّه الشيخ إدريس حفظه الله ، لم يكن الرجل جزائري الأصل بل كان أثيوبي المولد ، درس في الأزهر الشريف أيّام شبابه رفقة الشيخ يوسف القرضاوي الذّي كان صديقا له بل لقد تحصل على شهادته من هناك قبل الشيخ القرضاوي نفسه ، تخصص في أصول الفقه حسب ما ذُكر لي و له العديد من المؤلفات القيّمة ، كما أنّ الرجل و رغم سنّه الطاعن لا يزال يراعه يكتب بلا كلل و لا ملل ، إذ يقوم شيخنا في بعض الأحيان بإعداد بحوث و اجتهادات تُكلفه بها وزارة الشؤون

Generated by Unregistered Batch DOC TO PDF Converter 2012.4.309.1596, please register!

الدينية ، فإذا استعصت عليهم مسألة فقهية معيّنة رجعوا إلى علم الرجل ، أجل لا يزال يسعى في طريق العلم دون يأس أو حتّى دون أدنى تذّمر .. أكيد أنتم تستغربون لما أقول ذلك " بلا يأس أو تذّمر " ، لذا سأخبركم كيف يعيش الرجل ..لقد أخبرني صديقه " زوج أختي " أنّ الشيخ يعيش مُهمّشا جدّا ، لا أحد يسأل عن حاله و لا أحد يأبه لأمره ، يعيش في حيّ شعبي يقتني حافلة الطلاب كلّ صباح متجها إلى الجامعة الإسلامية في قسنطينة كلّ تلك المسافة - و هو الشيخ الطاعن في السنّ - كغيره من الطلبة ، يختنق كما يختنقون ، قد يقوم له أحدهم فيتكرم بمجلسه للشيخ الكبير و قد لا يفعل ، يُدّرسُ هناك ثم ينتقل إلى ملحقة الجامعة على قدميه و الرجل يعاني - كما أخبرني فيما بعد - من آلام حادة في ركبته اليمنى تجعله يتحرك ببطئ شديد ... ؟؟؟ .. هكذا تُعامل جمهوريتنا العظمى علماءنا الكبار في حين لا تتوارى خجلا و تستنجد بعلمهم عندما تقتضي الضرورة .. لكنّ إخلاصه لله و سعيه للعلم في سبيل هذه الأمة البائسة جعله يُطلّق الدنيا و يطمع إلى ما يخفيه له الله جلّ في علاه من خير بإذنه تعالى .. لقد قذف الله في قلوب الناس حبّ الشيخ إدريس لاسيما طلبة العلم إذ و بمجرد قدومه إلى الجامعة ستجد جمعا من الطلبة مُلتفا حوله يطمأنون على حاله و يعرضون مسائلهم عليه و تجده يتفاعل معهم بكلّ تواضع دون أن تُغادر الابتسامة مُحيّاه...

وصلنا إلى البيت و وصل معنا الشيخ في سيارة أخرى ، دخلنا البيت و أخذنا مجلسنا ، كنّا حوالي ستة رجال و كنت أنا أصغر الحاضرين سنّا ، أخذت مكانا مواجها للشيخ و أخذ صديق الزوج مكانه محاذيا للشيخ ، و بدون مقدّمات أخذ يسأل الشيخ بغية التعلم ، فتح معه موضوعا في القراءات ، بينما كنت أجلس أنا على الجمر ، شعرت حينها بحماسة شديدة كوني أجلس في مجلس عالم كبير و في غرفة واحدة جنبا إلى جنب ، كان الشيخ يطنب في شرحه و يقلّب بصره بين الحضور و للأسف لم أكن من أولئك الذين حظوا لحظتها بشرف ذلك ، ربّما لم يُعر اهتمامه بي ابتداءا كوني مُحاطٌ " بأصحاب الشوارب " كوني أصغر الحاضرين سنّا ، لم أستطع كبح حماستي و أردت أن أفتح معه موضوعا معينا ، استغليت سكوتا جزئيا بينهما لأرفع يدي قائلا : " يا شيخ لدّي مسألة بالغة الأهمية أريد أن ... " أردت أن ألفت انتباهه " بمسألتي بالغة الأهمية " إلاّ أنّ الشيخ استمر في حديثه عن القراءات مع صديقنا هذا ، فأنزلت يدي على الفور و كأنّي أريد إخفائها عن الأنظار، تمنيت حينها لو انشقت الأرض فجأة لتبتلعني كأن لم أكن موجودا بينهم لأتمكن من الهروب بشرفي من هذا الموقف المُحرج ، لاحظت ضحكات مكبوتة و قد لاحظ ذلك الصديق موقفي الحرج ليُخبرني حينها أنّ سمع الشيخ ضعيف جدّا لذا علّي الاقتراب منه أكثر فأكثر ليتمكن من سماعي جيدا ، أرجعت كلماته تلك أنفاسي الضائعة و أدركت أنّ الشيخ لم يتعمد تجاهلي و أنّه لم يسمعني من الأساس ، اضطررت إلى سماع حديثَ القراءات ثم حديثا جانبيا للشيخ مع حاضر آخر عن إضرابات الأساتذة و الحكم الشرعي لذلك ، حقيقة كدت أختنق لهكذا مواضيع و رأيت أنّها فرصة لا تُعوّض ، استغليت حديثهم لأحسم الموضوع الذي أريد فتحه مع الشيخ ، كنت سأحدثه عن موضوع له علاقة بالفلسفة الإسلامية لكنّي قدّرت أنّه موضوع غير مناسبا لذلك المقام لذا قررت أن يكون حديثا في السياسة كونها تخصصي أولا ثم لأنّ كلّ أفراد شعبنا العظيم يفهمون جيّدا في السياسة - بالإضافة إلى الدين و كرة القدم - لذا لن يكون موضوعا غريبا عن الحضور غرابة موضوع الفلسفة ، ما إن أنهوا حديثهم عن الإضراب حتّى أخذت مكانا ملاصقا للشيخ ، جلست إلى يساره و اقتربت كثيرا حتّى يتمكن

Generated by Unregistered Batch DOC TO PDF Converter 2012.4.309.1596, please register!

من سماعي جيّدا ، ونظرا لكونه أجنبيا عن لهجتنا العامية – رغم تعميره زمنا طويلا بين ظهراني أهلها – فقد فضّلت أن أُحدثّه بلسان عربي مبين ، ابتدأت حديثي على الفور و بسرعة و كأنّ سجينا أُطلق سراحه للتو و لساعات معدودة و حسب فيحاول القيام بكلّ شيء في زمن قصير : " بداية أُعرف بنفسي يا شيخ ، أنا طالب متخرج قسم العلوم السياسية و ..." فقاطعتني ضحكات للشيخ ممزوجة بشيء من الاهتمام و كأنّ لسان حاله يقول أنت تريد لي المشاكل يا غلام ، لاحظت انتباها للشيخ و إنصاتا بوقار ساعدني كثيرا على الانطلاق في طرح مسألتي ، ابتدأت حدثي أنّه و لكوني أدرس السياسة و مشتقاتها أجد نفسي في خضّم نقاشات دائمة مع أناس ذووا اتجاهات فكرية مختلفة منهم العلماني و منهم الإسلامي، منهم الاشتراكي و منهم الليبرالي ، الوسطي و المتطرف .. لذا فالناس مختلفون حول ما يجري اليوم في عالمنا العربي ممّا يُسمى بالثورات العربية بإختلاف منطلقاتهم الفكرية ، استغليت معرفته الكبيرة بالشيخ القرضاوي ففجرت النقاش متحدثا عن فتواه التّي أثارت كثيرا من الحبر ، كان الشيخ يجيب بإطناب مستشهدا بالكتاب و السنّة ، بأقوال العلماء و مواقفهم ، بتاريخنا الإسلامي الواسع و المثير للجدل ، لذا حاولت توجيهه بأسئلتي في كلّ مرّة .. أدركت أنّي أمام موسوعة حقيقية ، علم غزير مصقول بخبرة سنوات ، إلاّ أنّ ذلك لم يجعلني أكتفي بسمع قصصه بل حاولت استفزازه أكثر من مرّة مبديا وجهات أخرى مخالفة لما كان يقول و كأنّها وجهات نظري الخاصة حتّى أجعله يدلي بما لديه أكثر فأكثر ، تحدثنا عن الأوضاع في ليبيا ، مصر و الشام ، عن الصعود الكبير للحركات الإسلامية في الساحة السياسية اليوم نتيجة لهذه الثورات و كنت أحرص في كلّ مرة أن استخلص اجتهاداته الشرعية تجاه المسألة ، كنّا نتحدث و كأنّنا نعرف بعضنا البعض منذ الأزل ، احتكرت الحديث معه طيلة الجلسة و اكتفى أصحاب الشوارب بالمشاهدة بانبهار ، كان الوالد يُصور حديثنا عبر هاتفه النّقال و شعرت حينها و كأنّي في حصة على المباشر في إحدى الفضائيات العربية الشهيرة..

جاءت الوليمة و تجمع الكلّ حول المائدة اجتماع النسور الجارحة على الجثث ميتة ، إلاّ أنّ ذلك لم يمنعني من مواصلة الحديث مع الشيخ الذّي كان يُفيض في كلامه دون ملل ، بدى لي أنّه يستمتع بمحادثتي ، هذا ما جعلني أستغله أكثر فأكثر دون أن أشفق على سنّه و لحيته البيضاء ، لذا عاتبني الآخرون مُبدين تعاطفهم مع الشيخ الذّي يبدو أنّي جعلته يستنزف قواه بلا رحمة أو شفقة ، لقد لاحظ أحدهم حيلتي فأفتضحني أمام الجميع ، كنت أطرح أسئلتي لأترك ملعقة الشيخ المسكين معلّقةً في الهواء و هو يتحدث في حين أغتنم فرصة حديثه لأهجم بملعقتي على الموجود ، لم يبدي شيخنا أيّ علامة للاستياء لأنّه وجد التشويق في الحديث معي ، تحدّث عن بعض تجاربه أيضا و نقاشاته الفكرية مع الآخرين كان ممّا قصّه لي و بقي راسخا في ذاكرتي كان حديثه مرّة من المرّات مع مُفكر عقلاني- كما وصفه -غير مسلم ، قال له يا شيخ نحن في أوروبا نستغرب المشاحنات الكبيرة التّي تصل حدّ اللجوء إلى العنف لمجرد الاختلاف بينكم أنتم المسلمين بالرغم من أنّ دينكم دين العقلانية بامتياز في حين تغيب هذه العقلانية بالنسبة لأديان أوروبا بين كاثوليك و بروتيستنت و لا يلجأ أصحابها إلى هذا العنف ، لقد أصابت كلمات شيخنا هذه صميم فؤادي ، كما أبدت سماحة شيخنا إدريس و فهمه الجيّد و الوسطي لديننا الحنيف ، كان يكرّر كلماته باستمرار " يا بني إنّ الاختلاف في ديننا رحمة فلا ينبغي أن نجعله نقمة علينا .. بعد أن

Generated by Unregistered Batch DOC TO PDF Converter 2012.4.309.1596, please register!

تهدأ هذه الفوضى و ينقشع الضباب سوف يكتب التاريخ تاريخه و لن يرحم حينها أيّا ممن تسبب في مآسينا " أو كما قال شيخنا الجليل.

أردت أن أستمر في النقاش معه إلاّ أنّ موعد الظهر كان قد حلّ ، استأذننا الشيخ في الانصراف لأنّ له مريضا ينبغي أن يعتني به كما أنّه منشغل بإعداد بحث تمّ تكليفه به ، ساعدت شيخنا على النهوض بعناء على طريقته كما قال ، لأنّه يعاني من آلام حادة على مستوى الركبة كما أخبرني ، وحينها سألني عن اسمي ،- يبدو أنّي أحدثت أثرا حسنا في نفسه - فكرّت بأن لا أعطيه اسمي لأنّه من العيب أنّ الشيخ لم يكن يعرفني من قبل رغم صيتي الواسع و شهرتي الكبيرة بسبب مؤلفاتي الضخمة التّي تملئ الآفاق ، فكيف لي أن أمنح اسمي لشخص لم يكتب في حياته سوى مقال واحد و على الفايسبوك أيضا ثمّ لا يحظى في النهاية باهتمام أحد ، سوى من بعض الأصدقاء - ومن باب المجاملة أيضا – و ببعض من تعليقاتهم المقتضبة ، و أخيرا تواضعت قليلا ، اقتربت من سمعه و ذكرت له اسمي فابتهجت أسارير الرجل و رفع رأسه إلى السماء : " الجلال الله أكبر، عظيـــــم " سررت لأنّه أُعجب باسمي إلاّ أنّ سروري انقطع فورا بعد سؤاله هذا : " هل اسمك جلال أم جلال الدين أو عبد الجلال أو عبد الجليل لأنّه في الغالب يُرفق اسم الله بوصف لموصوف " .. لحظة إذن التفتُ إلى والدي و كأنّي أوجه نقمتي إليه : " ولدك ولدُ مشكلات حتّى اسمه يطرح تساؤلات لماذا غيّرت الاسم الذّي أطلقته عليّ والدتي ابتداءا تبّا ل .. " ..على باب الخروج تمنيت من الشيخ أن يكون لي حديث معه يوما ما فأخبرني أنّ لي ذلك و ما عليّ سوى الاتصال بصديقه ، شكرت شيخنا إدريس شكرا جزيلا و توجهنا صوب المسجد لأداء الصلاة.

انتهت مغامرتي تلك على مقعد السيارة إلى جانب والدي متجهين صوب بيتنا مسترجعا في ذهني طيلة الطريق نقاشاتي مع الشيخ إدريس حفظه الله و نفعنا بعلمه إن شاء الله ، كان الوالد يتحدث عن جمال السيارة الجديدة المستأجرة متمنيا أن يرزقه الله بسيارة مشابهة مستقبلا " و لما لا زوجة جديدة أيضا " هذا ما قرأته في عينيه ، في حين كانت الوالدة تتحدث عن البنايات و العمارات الجديدة المشيّدة على طول الطريق متمنية أن تحظى بيت جديد كما وعدت حكومتنا الموّقرة سكان حيّنا ، أمّا العروس الجديدة فأكاد أجزم أنّها كانت تُفكر في زوجها و تعيش معه أحلاما وردية في مُخيلتها ، في حين كنت مهموما في سرّي أنذب حظّي، ماذا لو فتح الله عليّ يوما ما فتحا مبينا ، ستكون لي حتما لقاءات أكثر حماسة من لقائي اليوم مع الشيخ إدريس ، رجوت الله أن أحظى في حياتي العلمية بفرص مواتية كما حظيَ بها آخرون .. عمّ الصمت " سيارتنا " الجميلة ضاع في ديجوره تفكيري إلى أن وصلنا إلى البيت بسلام .. كان الوقت عصرا ، توضأت و اتجهت صوب أبي لأرى ما تمّ تصويره و حينها كانت الصدمة .. أطمئنكم فلم تضع الصور و التسجيلات و لكن كان هاتف أبي صينيَ الصنع ذو جودة تصويرية جدّ رديئة ، شاهدت نفسي جالسا إلى جانب الشيخ بجلابيته البنّية الوبرية و كأنّ الصورة مأخوذة من القرون الوسطى بسبب جودة هاتف والدي العظيم ، لعنةٌ جهرا حظيَ العاثر ، كما لعنة فقر أبي لأنّه لم يقتني لنفسه هاتفا لائقا ، بالطبع أدّيت اللعنة سرّا- كما يُؤدى العصر تماما – خوفا من أن يرميني الوالد بهاتفه ليصيب رأسي الخشن ... نال التعب منّي لأنّي استيقظت " باكرا " على غير عادتي ، لذا

Generated by Unregistered Batch DOC TO PDF Converter 2012.4.309.1596, please register!

اتجهت صوب وسادتي الطريّة و سريري الدافئ لأكمل نومي مساءا بعدما حرموني منه صباحا ، متمنيا لنفسي أحلاما مسائيةً سعيدة.

الشيخ إدريس vs أنا